1 – الأشعرية المغربية إلى عهد ابن خمير

لقد عرفت الأشعرية في دخولها إلى المغرب وتطورها عدة محطات، نرى من جهتنا أن تقسم إلى ثلاث مراحل أساسية: مرحلة ما قبل الترسيم، ومرحلة الترسيم والترسيخ، ثم مرحلة الاكتساح والتوسع. وقد شهدت كل مرحلة أطوارا متعددة ارتقت فيها المدرسة ارتقاء تدريجيا قبل أن تصبح الاختيار العقدي لجمهور المؤمنين المغاربة.

1 – 1 – وتتوزع **مرحلة ما قبل الترسيم** إلى محطات ثانوية:

1 – 1 – 1 – المحطة الأولى أسميها محطة **المعرفة الأولى بالأشعرية،** قادها العالم الفاسي دراس بن إسماعيل (ت:357هـ/967م) الذي درس بالمشرق على تلاميذ أبي الحسن الأشعري، وأخذ عنهم مبادئ العقيدة الجديدة، وعاد إلى المغرب ليستقر بإفريقية حيث عمل على نشر المذهب هناك[1].

ثم يليه في الترويج للمذهب أبو بكر بن عبد المؤمن المكي الأصل القيرواني الموطن، وهو من كبار تلاميذ ابن مجاهد (ت:370هـ/980م)– تلميذ أبي الحسن الأشعري الشهير–، وعليه تخرج الأشعري المغربي المرموق أبو الحسن القابسي[2].

وقد تنكب الصواب بعض الباحثين المهتمين بدراسة الفكر الأشعري المغربي لهذه الفترة لما نسبوا بعض علماء أفريقية والمغرب إلى الطريقة الأشعرية، كما فعلوا مع أبي إسحاق إبراهيم القلانسي (ت: 361هـ/971م)، وابن أبي زيد القيرواني (ت: 386هـ/996م)، والذي تبين لي بعد الدراسة الممحصة أن تلك النسبة لا يوجد من الوثائق والأدلة ما يؤكدها، ولذلك أجزم بأن هذين العالمين لم يكونا أشعريين، وإنما كانا من المعتنقين للمذهب السلفي في العقيدة[3]. وماذا تقول عما ورد

إلى ... ابن عساكر في كتابه "تبيين كذب المفتري" من نصوص صريحة في

تبيين ابن أبي زيد لأبي الحسن الأشعري والدفاع عنه؟

[1] – راجع عنه مثلا: ابن القاضي جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ط: دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط: 1973: 1 / 194 – 195، وكنون – النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط: 2 مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت: 1961: 1 / 49 – 50.

[2] – روجي هادي إدريس – الدولة الصنهاجية، تر: حمادي الساحلي، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1992: 3 / 316 – 317.

[3] – تراجع عن حقيقة أشعرية هذين العالمين وغيرهما ممن نسبوا إلى المذهب الأشعري أطروحتنا المعنونة ب"الفكر العقدي بالمغرب بين السلفية والأشعرية"، توجد مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص: 194 وما بعدها.

1 – 1 – 2 – بعد هذا الطور يأتي طور ثان أسميه **طور الاعتقاد الفردي بالمذهب**، وينقسم بدوره إلى ثلاث فترات متميزة:

أ – <u>الفترة الأولى</u>: اصطلحت على تسميتها بـ**"الفترة الباقلانية"**؛ وقد تميزت هذه الفترة بظهور العلم الأشعري الكبير أبي بكر الباقلاني الذي وصل إشعاعه إلى المغرب من خلال تلاميذه المباشرين وغير المباشرين، لعل من أهمهم العالم الإفريقي الضليع أبا الحسن القابسي (ت: 403هـ/1012م)، الذي كان « من نظار بلاده، ورحل إلى المشرق فلقي الكثير من علمائه وروى عنهم..»[1]، ودرس على تلامذة الباقلاني، كما ألف "رسالة في فضل أبي الحسن الأشعري" « أحسن الثناء عليه، وذكر فضله وإمامته..»[2]، وله بعض التآليف – توجد بين أيدينا الآن – تشهد بأشعريته الواضحة.

وعلى خط القابسي سار مجموعة من علماء الفترة كأبي عبد الأذري (ت: 402هـ/1011م)، وأبي طاهر البغدادي. وكان الباقلاني قد أرسل بالأول داعيا إلى المذهب في دمشق، ثم حوله إلى بلاد المغرب[3]، أما الثاني فيعد من رموز الأشعرية بإفريقية، وعليه درس أبو عمران الفاسي الغفجومي (ت: 430هـ/1038م) قبل أن يسافر إلى المشرق ليصير منارة من منارات هذا الفكر في المغرب بعد ذلك.

ومن تلاميذ أبي طاهر البغدادي المغاربة لهذه الفترة، المفكر الأندلسي أبو محمد الأصيلي (ت: 393هـ/1001م)، الذي اشتهر عند المؤرخين بأشعريته، نظرا لدراسته بالمشرق على كبار الأشاعرة، ولظهور بعض المؤشرات الواضحة في مؤلفاته تومئ إلى أخذه ببعض المواقف والاختيارات في هذا المذهب.

كما نجد علما آخر تأكد اعتناقه لمذهب أبي الحسن الأشعري وهو أبو بكر محمد بن موهب القبري، فقد ذكر القاضي عياض عنه أنه رحل إلى المشرق ودرس به و« أنه غلب عليه الكلام والجدل على نصرة أهل السنة والتأليف في ذلك »، كما ذكر أن له تآليف في العقيدة[4]...

ومع ما تقدم فإن أبرز علم من أعلام الأشعرية لطور الاعتقاد الفردي في الفترة الباقلانية يبقى هو الفقيه أبو عمران الفاسي، الذي وقع الاتفاق على أن « القيروان بدأت على [يديه]...تشع

---

1 – مخلوف – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط: دار الكتاب العربي، بيروت: 1349هـ: 1 / 97.

2 – ابن عساكر – تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، تح: محمد زاهد الكوثري،ط: دار الكتاب العربي، بيروت: 1991، ض: 122.

3 – م، س، ص: 216 – 217.

4 – انظر: عياض – ترتيب المدارك، تح: سعيد أعراب، ط: فضالة ، المحمدية: 1982: 7 / 188 – 189.

بالأشعرية على إفريقية والمغرب والأندلس سواء بصفة مباشرة أو بواسطة تلاميذه..»[1]. وبالفعل فقد استطاعت مدرسته أن تخرج عددا من معتقدي الأشعرية والمدافعين عنها، لعل من أبرزهم عتيقا السوسي وأبا القاسم السيوري (ت: 486هـ/1093م)، وعبد العزيز الدباج، وابن الصابوني وغيرهم.

ب – **الفترة الثانية** في هذا الطور ارتأيت تسميتها ب**"الفترة الجوينية"**، نسبة إلى عبد الملك الجويني (ت:478هـ/1085م). وإذا كانت الفترة الأولى قد طبعت بانتهاج منهج الباقلاني في دراسة ومدارسة الفكر الأشعري بالمغرب، فإن هذه الفترة ستتميز بتبنيها للأسلوب الجديد للجويني في عرض الأشعرية والدفاع عنها، ومن أبرز علماء المغرب لهذه الفترة محمد بن سعيد (ت: بعد 456هـ/1063م)، الذي درس على إمام الحرمين، وعاد إلى الأندلس حيث قام يبث مبادئ هذا المذهب في وسطه الخاص، وخاصم ابن حزم ورد عليه في قضايا أصولية وعقدية بصحبة الباجي[2].

ومنهم أيضا محمد بن إبراهيم المعروف بابن شق الليل الطليطلي (ت: 455هـ/1063م)، وعبد الحق بن محمد التميمي القرشي من إفريقية (ت: 460هـ/1067م)، الذي لقي أبا المعالي ودرس عليه، وألف عقيدة على الطريقة الجديدة[3].

ومنهم أبو الحفص الهوزني (ت: 460هـ/1067م)، الذي ألف في العقيدة الأشعرية كتاب "عقائد أهل السنة"[4].

وقد شهدت الفترة الثانية من الطور الأول في انتشار الفكر الأشعري بالمغرب تطورا وزحفا بطيئين، إذ ظل الاعتقاد بهذا المذهب والترويج له محدودا، نظرا للضغط الذي كان الفكر الشيعي بإفريقية لا يزال يمارسه على الاتجاهات السنية، بالإضافة إلى أن المحاربة الرسمية من الدولة المرابطية مارست ضغطا قويا في اتجاه منع الترويج لهذا المذهب، مما جعل هذا الاتجاه العقدي يظل محصورا في فئات الدارسين له بالمشرق، وبعض التلاميذ المغاربة. ومع ذلك فقد سجلنا أن أشاعرة المغرب لهذه

---

[1] – عبد المجيد النجار – فصول في الفكر الإسلامي، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1992، ص: 28، و روجي إدريس – الدولة الصنهاجية: 2 / 318.

[2] – انظر: ابن الأبار – التكملة، نشر: عزت العطار، ط: مطبعة السعادة، القاهرة: 1375هـ/1956م: 1 / 126.

[3] – عياض– ترتيب المدارك، تح: سعيد اعراب، ط: فضالة، المحمدية: 1983: 8 / 73.

[4] – راجع: حماني – مدرسة العقيدة في عدوتي الأندلس والمغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، أطروحة جامعية نوقشت بدار الحديث الحسنية بالرباط، سنة: 1987 – 1988م (مرقونة)، ص: 173.

الفـــترة ولا ســيما أشـــاعرة الفترة الجوينية تجاوزوا مرحلة الاطلاع على المذهب إلى مرحلة التأليف والتصنيف فيه دفاعا عنه وترويجا لقضاياه.

ج — **الفترة الثالثة:** ومع ما قلناه عن تطور المذهب في الفترتين السابقتين إلا أن الفترة الأساسية والحاسمة في إذاعة المذهب الأشعري المغربي والترويج لـــه في هذا الطور –طور الاعتقاد الفردي– تبقى هي الفترة الثالثة، وأقصد بها الفترة التي اصطلح على تسميتها ب:**فترة التأليف والتأصيل**، وقد أطلقنا عـــليها هـــذه التسمية نظرا لظهور أعلام كبار خلالها، قاموا بتأسيس حقيقي لمدرسة أشعرية مغربية، وتجلى تأسيسهم في نواح كثيرة أهمها تدريسهم للفكر الأشعري في حلقاتهم العلمية، واشتهار مؤلفاتهم الدفاعيـــة عن المذهب، والأهم هو وصول الكثير من مؤلفاتهم وبقاء بعضها إلى الآن. ومع ذلك فتلزم الإشـــارة إلى أنـــه لا يقصد بهذه التسمية الزعم بطروء التأليف على طريقة الأشاعرة بالمغرب في هذه الفترة، – لأن التأليف في ذلك كما قد توضح وقع الشروع فيه منذ المرحلة السالفة–، ولكن التسمية تشـــير فقط إلى الخصوصية التأليفية، وإلى تميز التجربة التدوينية للمدروس من علم علماء المذهب لهذه الفترة في كتب ومؤلفات وصلنا منها قدر لا يستهان به.

أول أعـــلام هـــذه الفترة المفكر الأندلسي أبو الوليد الباجي (ت:474هـ/1081م)[1]، فقد درس الـــباجي أولا بـــبلاده ثم رحـــل إلى المشرق، وبلغ رتبة عالية في العلم، مما أهله لتصدر حلقات العلم والتدريس أينما حل وارتحل. وإلى جانب تقدمه ورياسته في الفقه فقد شهد له بأنه كان« نظارا محققا .. متكـــلما أصوليا»[2]، وقد ألف أبو الوليد عدة مؤلفات في العقيدة والجدل والأصول أهمها: "كتاب التسديد في معرفة طرق التوحيد"، و"كتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول"، و"كتاب الإشارة في الأصول"، و"كتاب الحدود"، و"كتاب تفسير المنهاج في ترتيب طرق الحجاج" وغيرها[3]. ولكن يبقى أهم ما سجل له في الدفاع عن مذهب الأشاعرة هو ما ذكره غير واحد من المؤرخين من مناظرته لابن حزم الظاهري وإفحامه له [؟!][4].

---

1 – عن سيرته انظر: عياض – ترتيب المدارك: 8 / 117، وابن بشكوال – كتاب الصلة في أئمة الأندلس، ط: مدريد: 1883م: 1 / 199–201 وغيرهما.

2 – عياض: ن، م: نفس الصفحة.

3 – ن، م: 8 / 124 – 125.

4 – راجع: مخلوف – شجرة النور: 1 / 120.

ومــن علماء المذهب لهذه الفترة أيضا أبو العباس أحمد بن بشر القرطي الغرناطي (ت:477هـ/ 1084م)، الــذي كــان من أهل العلم وألف "عقيدة في أصول الدين" سمعها منه ابن الباذش وكتبها عنه[1]. قال ابن فرحون: « وكان من أهل المعرفة بعلم الكلام وله فيه عقيدة جميلة ومفيدة »[2].

ومن علماء إفريقية لهذه الفترة كذلك أبو محمد عبد الحميد المعروف بابن الصائغ (ت: 486هـ/ 1093م)، فقد درس على أبي عمران الفقه والأصول بإفريقية، وكان الكلام الأشعري – الذي أخذه مــن مدرسة أبي عمران الفاسي– طاغيا عليه، عمل على تدريسه بالمهدية وهناك اتصل به أحد رموز المذهب الكبار في إفريقية محمد بن علي المازري (ت: 536هــ/1141م) حيث درس عليه وأخذ عنه ميراث أبي عمران من العلم الأشعري[3].

ومــن أشاعرة المغرب الذين سطع نجمهم بعد الباجي أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (ت:489هــ/1095م)[4]، قيرواني الأصل، أندلسي الإقامة، وكان «عالما وإماما في أصول الدين، له نهوض في علم الاعتقادات والأصول»[5]. وقد درس بالأندلس وتلقى عنه العلم بها عدد كبير من أبنائها، ثم انــتقل إلى المغــرب الأقصى فكان «أول من أدخل علوم الاعتقادات [على طريقة الأشاعرة] إلى المغرب الأقصى»[6]. وكانت له تآليف في العقيدة حسان[7].

وعلى نهجه سار مجموعة من الأشاعرة، منهم أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد المعافري المعروف بــابن الفلو (ت:502هـ/1108م)، الذي تلمذ للباجي والتقى بالجويني، وعكف بعد عودته إلى بلاده على التدريس والمناظرة على المذهب وكان ممن درس عليه القاضي عياض وغيره[8].

---

[1] – ابن الأبار – التكملة: 1 / 23.

[2] – الديباج المذهب في أعيان المذهب، ط: مطبعة السعادة، القاهرة: 1329هـ، ص: 45.

[3] – راجع: النجار – الفصول، ص: 29.

[4] – انظر: ابن بشكوال – الصلة: 2 / 544، وابن عبد الملك – الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس، م: 1، ق: 5، ط: دار الثقافة، بيروت: (د – ت)، وأبو العباس التعارجي– الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعمال: 4 / 12.

[5] – التعارجي – الإعلام: 4 / 12.

[6] – الــتادلي– التشــوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد التوفيق، ط: مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء: 1984م، ص: 106 والتعارجي– م، س: نفس الصفحة.

[7] – ابن بشكوال– الصلة: 2 / 547، والتعارجي– م، س.

[8] – ابن الأبار: التكملة – ص: 588.

ومنهم أيضا: المتكلم الضليع أبو محمد عبد الغالب السالمي (ت:516 هـ/ 1122 م)، الذي كان متكلما «على مذهب أهل السنة من الأشعرية...وكتب هو وأبو الحجاج الضرير في اختصار "الهداية والشـامل" المسـمى "أنوار الحقائق وأسرار الدقائق"»[1]، ودرس العقيدة للسبتيين قبل أن يحط الرحال بمراكش التي استمر بها مَعلما إلى أن وافاه أجله.

وقـد حفظت بعض المكتبات الخاصة عقيدة من أهم ما وصلنا من فكر أشاعرة المغرب الأوائل، وهـي عقيدة أبي الطيب سعيد الإسفاقسي (ت:501هـ/ 1107م)[2]، المسماة: "العقيدة الصالحة" أو "العقيدة السفاقسية"، وهي عقيدة متميزة بأسلوب السفاقسي ذي النفس الأشعري الواضح، والعاكس لمدى التطور الذي عرفه الفكر الكلامي لعلماء المدرسة المغربية خلال هذه الحقبة.

وإلى جـانب هـذه العقيدة يوجد بين أيدينا الآن نظم لعقيدة أو "أرجوزة الضرير" لصاحبها أبي الحجاج يوسف السرقسطي الأصل المغربي الإقامة (ت:520هـ/1126م)[3]، الذي درس على المرادي، وخلفه على رأس المدرسة الأشعرية. ويشهد كل من درس أرجوزته المسماة: "التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد" على أنها من أهم التراث الأشعري لمفكري الأندلس والمغرب، وهي في حقيقتها نظم لكتاب "الإرشاد" للجويني، إلا أنها مطبوعة بالطابع المغربي الخاص، الشيء الذي أهلها لأن تكون بحق مرجعا لكـثير من العلماء والدارسين المعتنين بالعقيدة في المغرب، مما دفعهم إلى تدريسها وشرحها في شروح متعددة.

ومن أعلام الفكر الأشعري المغربي لهذه الفترة أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي الفيلسوف (ت:521هـ/1127م)، الذي سلك مسلك الأشاعرة في القول بالتأويل، واعتنق الكثير من عقائدهم ومبادئهم[4].

---

[1] – عياض– الغنية، تح: ماهر زهير جرار، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1982، ص: 169.

[2] – ترجم له عياض في الغنية، ص: 210، وقال: « اجتاز ببلدنا وسكن أغمات، كان من المحققين بالفقه والكلام، تفقه بأبي الحسن اللخمي وطبقته، وبعد صيته عند السلطان ...فلم يزده ذلك إلا خيرا وانقباضا وتواضعا»، نفسه.

[3] – عـن ترجمـته انظر: الضبي– بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ط: مدريد: 1884، ص: 477، وعياض – الغـنية، ص: 226، والتادلي– التشوف، ص: 105 وما بعدها، والزركلي– الأعلام، ط: دار العلم للملايين، بيروت: 1986: 8 / 254.

[4] – البطليوسي– كتاب التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين، تح: أحمد حسين كحيل وحمزة عبد الله النشرتي، ط: 2 مكتبة المتنبي للطبع والنشر والتوزيع، 1982، ص: 65 – 67.

ومنهم عيسى بن إبراهيم القيسي (ت:527هـ/1132م)، المشارك في أصول الديانات[1]، وهشام ابـن بقوي (ت:530هـ/1135م)، الذي كان متقدما في أصول الدين[2]، وابن برجان الإشبيلي (ت: 530هـ/1135م) الذي كان من المحققين في علم الكلام وألف "شرح أسماء الله الحسنى"[3]–، وغيرهم.

وإذا ولينا وجوهنا نحو إفريقية نجد العلم الذي أشرنا إليه قبل قليل وهو أبو عبد الله المازري (ت: 536هـ/1141م)[4]، الذي يعد بحق « ممثلا لمرحلة ظهرت فيها بوادر واضحة لنضج الأشعرية وعطائها بإفـريقية، فقد بدت في مؤلفاته خصائص هذا المذهب واضحة المعالم، وبانت في آرائه عمق مقولات الأشعرية في فهم العقيدة»[5]. وقد ألف في العقيدة مؤلفات من أهمها: "نظم الفرائد في علم العقائد"، و"كتاب النكت القطعية في الرد على الحشوية"، و"الإملاء على رسائل إخوان الصفاء"[6]، وغيرها.

وإذا كـان المازري يعد رمزا لمنعطف حاسم في تاريخ الأشعرية بإفريقية، فإن ابن العربي المعافري (ت:543هـ/1148م) يعـد بدوره طودا شامخا في تاريخ المدرسة ببلاد الأندلس والمغرب الأقصى، ويكفـي الرجوع إلى مؤلفاته العديدة ولاسيما إلى كتابه "العواصم من القواصم"، للتنبه إلى المستوى الرفيع الذي بلغه الدرس الأشعري المغربي في تلك الفترة.

وعموما فإن مرحلة التأليف والتأصيل في الفكر الأشعري المغربي كانت مرحلة مهمة وحاسمة في نشر وترويج المذهب على المستوى العلمي الخاص، فقد توسع الاطلاع على هذا الفكر بحكم أنه صار يـدرس في جهـات المغرب من خلال الحلقات العلمية التي كان يشرف عليها العلماء الذين سردنا أسمـاءهم في هذا المبحث، وصار التمكن منه علامة على مسايرة التطور الفكري والعقدي العام الذي شهده العالم الإسلامي.

---

[1] – حماني– مدرسة العقيدة، ص: 75.

[2] – ن، م، ص: 167.

[3] – ابـن الأبـار – التكملة: 2 45، وابن الزبير– صلة الصلة، تح: ليفي بروفنصال، ط: المطبعة الاقتصادية، الرباط: 1973، ص: 31.

[4] – عن سيرته انظر : ابن فرحون – الديباج، ص: 279، وابن خلكان– وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، ط: دار صـادر، بـيروت: 1972: 4 / 685، ومخـلوف– شجرة النور: 1 / 127، ومحمد العابد الفاسي– فهرس مخطوطات القرويين، تقديم وترتيب: محمد الفاسي الفهري، ط: 1 دار الكتاب، البيضاء: 1979: 1 / 159.

[5] – فصول في الفكر الإسلامي، ص: 29.

[6] – انظر: محمد الشاذلي النيفر – المازري، منشورات اللجنة الثقافية الجهوية بالمنستير: 1982، ص: 34.

ومـــع ذلـــك فـــلا يمكن الزعم بأن الاتجاه الأشعري صار عقيدة لكل العلماء المغاربة فضلا عن عامـــتهم، ولا شك أن الاختيارات الرسمية للمرابطين وفقهائهم من المالكية، كانت حائلا قويا وقف دون تعميم هذا الاختيار الأشعري وترسيمه في مجموع البلاد.

1 – 2 – طـــور الترسيم والترسيخ: لقد كان المذهب – من أجل رسوخه وتجذره في كل الأوساط المغربية المؤمنة – في حاجة إلى أرضية سياسية تفرض ممارسته والترويج له على المستوى الـــرسمي، وهذا ما سيضطلع به المهدي بن تومرت (ت:524هـ/1129م) وأتباعه من الموحدين. فقد عـــاد المهـــدي من رحلته المشرقية بطموح إصلاحي جديد كان المذهب الأشعري عنصرا أساسيا من عناصر مشروعه فيه. و« كان قد لقي في المشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة، وأخذ عنهم واستحسن طريقـــتهم في الانتصـــار للعقائد السلفية، والذب عنها بالحجج العقلية الواقعة في صدور أهل البدعة، وذهـــب إلى رأيهم في تأويل المتشابه والآي والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعه في التأويل والأخذ بآرائهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل، وإقرار المتشابهات كما جاءت. فطعن على أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، وأعلن إمامتهم ووجوب تقليدهم »[1].

نعم لقد تحقق للمهدي وأتباعه من السلطة ما جعلهم يفرضون العقيدة الأشعرية بالقوة في دولتهم. ولم يكـــن المهـــدي – وهو العالم والمفكر السياسي والديني المحنك – ليتأخر عن التأليف في العقيدة، ضمانا لانتشار أفكاره ورسالته، فألف "المرشدة"، التي استندت في الكثير من قضاياها وفي أسلوبها إلى القناعات والمنهجية الأشعرية، وبذلك تمكن من نشر الفكر الجديد، حيث طار ذكر عقيدته، ودرست في حياته وبعد موته في جل ربوع المغرب والأندلس وإفريقية.

إن المثير حقا أن دعوة المهدي السياسية قامت على ركيزة دينية عقدية، بحيث إنها استغلت الجانب السلفي في عقيدة المرابطين لتسلط عليه معاول هدمها (باعتبار السلف في نظره من المجسمة لأنهـــم لا يقولـــون بالـــتأويـــل)، مـــتهمة عقيدة الدولة بالتشبيه والتجسيد ثم بالكفر والضلال. وقد كان هذا السلاح الخطير الذي وظفه ابن تومرت –بدهاء شديد– ذريعة قوية تعلل بها الكثيرون ممن سينقادون له وسيتعاطون الكلام الأشعري لتصحيح عقائدهم والنجاة بدينهم.

---

[1] – ابن خلدون– التاريخ، ضبط وتنظيم: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، ط: 3 دار الفكر، بيروت: 1996: 6 / 302.

وعلى هدي المهدي سار عبد المؤمن بن علي وأبناؤه، حيث ألزم "الكومي" العامة بقراءة العقيدة التي أولها: "اعلم أرشدنا الله وإياك"، وحفظها. وكان يبعث نسخا من تآليف المهدي وخاصة كتاب"أعز ما يطلب" إلى الولاة، يأمرهم فيه باتباعه، والتقيد بما فيه، فمن عانده أو خالفه أو ضاده أو عصاه حاق به الردى[1].

وكان عبد المؤمن – الخليفة – يقدس المهدي ويعتقد فيه اعتقادات خرافية، فما أن استتب له أمر الحكم بعد ابن تومرت حتى صار يصدر المراسيم والتعليمات إلى نوابه في البلاد بضرورة الأخذ بآراء المهدي وسلوك مسلكه في اعتماد العلوم. وقد جاء في بعض هذه المراسيم: « ويؤمر الذين يفهمون اللسان العربي ويتكلمون به أن يقرأوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه ويفهموه ويلازموا قراءته ويتعهدوه، ويؤمر طلبة الحضر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر، ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة [المرشدة]...وحفظها وتفهمها، وأشمل في هذا الالتزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد، وكل من توجه عليه التكليف، إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد، فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالرسالة، ومن حصل على مثل هذه الحالة فقد تعثر في أذيال الضلالة »[2].

ولم يكتف عبد المؤمن بهذا بل لقد اهتم بالناشئة وقام يستجلب الصبيان من الآفاق مخصصا لهم أماكن نظامية للتربية والتعليم، آمرا بتلقينهم مبادئ المهدي وكتبه...ويخبرنا ابن القطان أنه أحضر من إشبيلية وحدها خمسين صبيا، ومما يحكيه عن مواد الدراسة أنهم « أمروا بكتب التوحيد وحفظه وكتب "موطأ الإمام" – رضي الله تعالى عنه– وحفظه، وأقاموا لذلك تحت جراية واسعة وجباية بالغة...حتى بدا عليهم نور الإمامة وتميزوا بالحفظ وامتازوا بالكرامة»[3].

إن جوا كهذا الذي هيأه عبد المؤمن لحقيق بأن ييسر للأشعرية أن ترسم وتترسخ داخل منطقة نفوذ الموحدين، الممتد من المغرب الأدنى إلى الأندلس، ومن هنا برز أعلام كبار وباحثون متميزون في الفكر الأشعري منهم من اكتفى بالاطلاع على العقيدة الأشعرية والتمكن من مبادئها فقط، ومنهم من

---

[1] – عباس الجراري – الموحدون ثورة سياسية ومذهبية – دراسة بمجلة المناهل، ع: 1، س: 1 ذو القعدة 1384هـ/ نوفمبر 1974م، ص: 106.

[2] – من رسالة ضمن كتاب أخبار المهدي للبيدق، ط: باريس، عن النجار – المهدي بن تومرت، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1983، ص: 404.

[3] – نظم الجمان، تح: محمود علي مكي، ط: I دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1990، ص: 179.

تجاوز ذلك إلى تدريسها وتلقينها للناس، ومنهم من قام بالتأليف شرحا لبعض أصولها المشرقية وبسطا لقضـــاياها، ومـــنهم مـــن تجاوز هذه المستويات كلها إلى مناقشة الفلاسفة والرد عليهم انطلاقا من القـــناعات الأشـــعرية، ومـــنهم من قام ينظم هذه العقيدة في أراجيز مقربا حفظها إلى تناول العامة والخاصة، ومنهم من سعى إلى نشرها في وسط العامة بتصحيح الأخطاء الواقعة في الاعتقادات مما هو مخـــالف للمذهب، ومنهم من امتاز بالتأليف المستقل في المذهب منتهجا أسلوبا خاصا يعتمد المبادئ والقضـــايا المتفق عليها في المدرسة، ولكنه اختار لنفسه طريقة جديدة في الكتابة لم يسبق إليها، ومن هؤلاء مبحوثنا الأول في هذا التقديم ابن حمير السبتي.

1 – 3 – مرحلة الاكتساح والإبداع والتوسع: علمنا بأن الفكر الأشعري صار على عهـــد الدولـــة الموحدية المذهب الرسمي للبلاد، وقد تعدى الاعتقاد به والالتزام بمبادئه فئة العلماء إلى جمهـــور المســـلمين بعد أن صارت له حلق علمية يدرس فيها على الملإ، وصار العلماء يتنافسون في الـــتأليف فيه وتبسيط قواعده للمبتدئين. ومعنى هذا أن المذهب كان قد سجل اكتساحا عارما للبيئة المغربية، وأن الإشارة إلى العلماء والأعلام الأشاعرة في هذه الفترة، لا تعني ما كانت تعنيه في الفترات والأطوار السابقة من إحصاء للمشتغلين بالدرس الأشعري، وإنما ستصير الآن عملية لانتقاء رموز هذا الفكر والتعريف بكبار المرموقين الذين تميزوا من بين علماء هذا المذهب ليس إلا.

فمـــن الذين استفادوا من هذا المناخ الجديد من علماء الأشعرية علي بن محمد الضحاك الغرناطي (ت:552هـ/1157م) المتكلم الأصولي الماهر[1]، الذي درس على أبي العباس الزنقي، وله مصنفات مهمة أهمهـــا كتاب: "منهاج السداد في شرح الإرشاد"، وهو إرشاد الجويني الشهير، كما لـــه مؤلفات في الأصول أشهرها: "مدارك الحقائق"[2].

ومنهم أيضا الصوفي الكبيرعلي بن إسماعيل بن حرزهم (ت:559هـــ/1163م)[3]، الذي درس على ابـــن العـــربي المعافري، وأبي محمد صالح عمه – التلميذ المباشر للغزالي-. أما دوره في ترسيخ عقيدة

---

1 – م، س، س: 5، ق: 2، ص: 284.

2 – راجع: م، س، نفس الصفحة، وابن الزبير– صلة الصلة، ص: 94.

3 – انظر ترجمته عند: ابن الأحمر– بيوتات فاس الكبرى، ط: دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط: 1972، ص: 66، وابـــن قـــنفذ– أنس الفقير وعز الحقير، تصح ونشر : محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث، الـــرباط : 1956، ص: 97، والجـــزنائي–جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، إع: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة=

الأشـــاعرة فقد ظهر من خلال تشجيعه على دراسة كتب علماء هذا المذهب، وفي تهييئه المناخ لميلاد المدرســة الأشــعرية الفاســية – مدرسة أبي عمرو السلالجي–. فقد كان أبو عمرو أحد تلاميذ ابن حــرزهم، درس عليه "الإرشاد"، وأخذ عنه، واعتمد عليه، وتأثر به تأثرا كبيرا لا سيما في الاشتغال بعلم الكلام، وفي سلوك طريق التصوف.

أمــا أكــبر أشاعرة الحاشية الموحدية لهذا الطور فهو المؤصل الأندلسي علي بن محمد بن خليد الأندلســي المعــروف بابن الإشبيلي (ت:567هـ/1172م)[1]، الذي نشأ بالأندلس ودرس على أنبغ عــلمائها، ثم رحل إلى العدوة واستقر بفاس مدة درس عليه فيها كثير من طلبتها، ثم انتقل إلى مركز الخلافة الموحدية بمراكش وانضم إلى البلاط حتى صار الأستاذ الأول للفكر الأشعري بالقصر الموحدي أيام عبد المؤمن وأبنائه الأوائل.

كــان ابــن الإشبيلي حافظا للفقه خطيبا بليغا وأصوليا ماهرا، أما الكلام الأشعري فكان أكبر تخصصــه، وقد أخذ عنه العلم بالمغرب الكثيرون، واستفاد منه طلبة عبد المؤمن في المدرسة النظامية، وكــان أبو عمرو السلالجي وابن عبد الملك – صاحب "المن بالإمامة" – ممن تخرج عليه في العقيدة بمراكش. قال في "المن": « لقيته بحضرة مراكش سنة ستين وخمسمائة وسمعت عليه "عقيدة التوحيد"، و"العقيــدة المــباركة" المسماة ب:"الطاهرة"، وكتاب "أعز ما يطلب" بقراءة الكاتب أبي عبد الله بن عمــيرة. وكــان إذا قرأ القارئ المذكور فصلا مما ذكرته من العقائد شرح غامضها وفتح أقفالها على الطلبة وذيل لهم حتى يروض رايضها»[2].

=الملكية، الرباط: 1991، ص:97، وابن سودة – دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط: المطبعة الحسنية، تطوان: 1950، ص: 218، وعبد الهادي التازي – جامع القرويين، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت: 1972: 1 / 168.

[1]– انظر ترجمته عند: ابن صاحب الصلاة – المن بالإمامة، تح: عبد الهادي التازي، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1987، ص: 160 ومــا بعدهــا، وابــن القاضي– الجذوة: 2 / 479 وما بعدها، وابن الأبار – التكملة: 2 / 668، والمراكشي– الذيل والتكملة: س: 5: 1 / 304، وابن الزبير– صلة الصلة، ص: 101، والتازي – جامع القرويين: 1 / 169.

[2]– ص: 161 – 162.

لقد تخرج من مدرسة ابن الإشبيلي جملة من الطلبة والعلماء، لكن أكبر عالم يحسب لهذه المدرسة ويعـــد من أعظم ثمارها هو الإمام الفاسي الكبير، والمتصوف الزاهد المتميز أبو عمرو عثمان السلالجي (ت:574هـــ/1178م) [1]، الذي كان: « إليه مرجع الفاسيين في علم الكلام»[2].

نعم لقد كان عثمان السلالجي هذا علما وطودا شامخا في تاريخ الفكر الأشعري بالمغرب[3]. نشأ بفـــاس وبدأ حياته كغيره مقبلا على العلوم الفقهية الفروعية – التي كانت سائدة في عصره على عهد الملـــثمين – ولكـــنه ما لبث أن انهمك في دراسة كتاب "الإرشاد" للجويني. ولما قدم أبو الحسن بن الإشـــبيلي إلى مراكش التقى به وجلس إلى حلقته ليتعلم ما خفي عليه من علم الكلام الأشعري وما كان بصدد البحث عنه في رحلته الفاشلة إلى المشرق.

وبمصاحبته لابن الإشبيلي فتح عليه في العلم حتى صار إماما كبيرا وصار من مجالسي أمير المؤمنين ضـــمن طلبة أبي الحسن، وكان معرضا للترقي في حاشية عبد المؤمن بن علي – الذي قربه وأكرمه–،

---

[1]– عـــن أخـــباره وترجمته انظر: المديوني– شرح العقيدة البرهانية، مخطوطة القرويين، رقم: 1337، صحيفة: 51 وما بعدهـــا، وابـــن الأحمـــر وغيره– بيوتات فاس، ص: 45، والتادلي– التشوف، ص: 198 – 201، وابن أبي زرع – القـــرطاس، ط: دار المنصـــور ، الرباط: 1973، ص: 266، والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط: دار المنصور للطـــباعة والوراقة، الرباط: 1972، ص: 46، ومجهول– ذكر مشاهير فاس في القديم، تح: زمامة (ضمن مجلة البحث العـــلمي، ع: 4 – 5، س: 2، شـــوال – ربيع الثاني: 1385-84 / يناير – غشت: 1965، ص: 85)، وابن القاضي– الجـــذوة، ص: 458، وابن الزبير – صلة الصلة، ص: 4 و ص: 101، وابن عيشون – الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم: 1246، ص: 202 وما بعدها، والتستاوتي – نظم كتاب التشوف، مخطوطة الخزانة العامة بالربـــاط، رقم: 1302د (ضمن مجمـــوع)، ص: 1598، واليفرني– المباحث العقلية في شـــرح معاني العقيدة البرهانية، مخطوطة الخزانة الحسنية، رقم: 11174، ص: 27 – 28، وابن قنفذ– شرف الطالب في أسنى المطالب، (ضمن: ألف سنة من الوفيات»، تح: محمد حجي، ط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط: 1976، ص: 64، وابـــن غازي–كتاب بغية الطلاب في شرح منية الحساب، ط: حجرية، فاس: (د–ت) كراسة: 16، ص: 7، والكتاني – سلوة الأنفاس، ط: حجرية، فاس: 1316هـــ : 2 / 183، ومخلوف– شجرة النور، ص: 163.

[2] – العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين، ط: 8 مصورة بالأوفسيط، الرباط: 1977، ص: 58.

[3] – وقد كان موضوع رسالتي لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا عن هذا المفكر الأشعري، وللتوسع في الوقوف على دور الـــرجل داخل المدرسة الأشعرية المغربية وقيمته داخلها يمكن الرجوع إلى هذا البحث، وعنوانه بالتمام: أبو عمرو الســـلالجي وفكره العقدي – دراسة لجانب من الفكر الأشعري بالمغرب من خلال البرهانية وشروحها، (بحث مرقون بكلية الآداب بالرباط، قدم للمناقشة برسم الموسم الدراسي: 1994 – 1995).

ولكـــنه مـــا لبث – فجأة – أن أعلن هجرانه لمجلس السلطان، وقرر الرجوع إلى مدينة فاس، وتفرغ للعبادة والتدريس.

وخلال استقراره أخيرا بفاس اقتعد الكرسي بجامع القرويين يدرس العقيدة والأصول، فأقبل عليه الفاســيون وغيرهـــم من أبناء المغرب والأندلس يقرأون عليه ويغترفون من علومه التي كانت جديدة بالمقارنـــة مع ما كان يدرس من قبل على عهد المرابطين. ولهذا راج عند الكثير من الباحثين – قدامى ومحدثـــين – أن الســـلاجي هو «منقذ أهل فاس من التجسيم»[1]، لأنه أول مغربي درس علم الكلام الأشعري بفاس، فعمل على الحد من سيطرة الفكر العقدي الذي كان رائجا من قبل.

يقول أبو الحسن بن مؤمن تلميذ السلاجي عن دراسة شيخه ومركزه العلمي وزهده: « لما رحل أبـــو عمـــرو – رحمه الله – إلى حضرة مراكش ولازم الفقيه الحبر الأبر أبا الحسن علي بن الأشبيلي وانتفع به وفتح له على يده وتفقه به في أصول الدين وأصول الفقه ومسائل الاتفاق والاختلاف، ولحق درجـــة المجتهدين النظار المفتين، وانحاز عن رتبة المستفتين، وكان يحضر مجلس سيدنا أمير المؤمنين مع جملة من الطلبة، فظهر حذقه وذكاؤه في المجلس، وعرفه أمير المؤمنين عينا واسما، وكان رضي الله عنه معرضا للترقي في منازل كبيرة سنية ودرجة شريفة علية، فزهد في ذلك كله، وتركه لله – عز وجل – وتخلى عنه وانصرف راجعا إلى مدينة فاس، والتزم الإقراء بها لبث العلم لله – تعالى – ونشره وتدريسه ...وخـــرج على يده جملة من حذاق العلماء...ووهبه [الله] من التحقيق والتوفيق والتشقيق والتحرز والتدقيق ما يقصر عن وصفه اللسان وتكل دون البلوغ إلى كنهه الأذهان »[2].

أمـــا ما خلد ذكر هذا الأشعري المغربي بحق فهو تأليف صغير في العقيدة ألفه لتلميذة من تلاميذه اسمهـــا "خيرونة"، و سمي فيما بعد ب"العقيدة البرهانية"، هاته العقيدة التي رغم وجازتها واختصارها الشديد إلا أنها طارت بذكرها الركبان، وصارت تدرس في نواحي المغرب كله وظلت قراءتها منتشرة في المغرب الأقصى والأندلس وتونس مدة طويلة – إلى ظهور السنوسي[3] – ، ووصل تدريسها إلى بلاد السودان[4]، بل وحبست الأحباس والأوقاف على تدريسها[5].

---

[1] – المنوني – العلوم والآداب والفنون، ص: 58.

[2] – مجهول – شرح العقيدة البرهانية، ص: 56 – 57.

[3] – ابن غازي – بغية الطلاب: كراسة: 19 ص: 7.

[4] – راجع: التنبكتي – نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ، تح: عبد الحميد الهرامة، ط: كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس: 1989، ص: 607.

[5] – القادري – الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، مخطوطة محمد بوخبزة الخاصة، ص: 178.

إن "الــبرهانية" أو "السلالقية" – كما سماها ابن رشيد[1]– شرحت بشروح كثيرة، ولا أبالغ إذا قـــلت بأنها لقيت من العناية والشرح ما لم يلقه مؤلف في العقيدة بالمغرب من قبل، –وربما من بعد–. وعمومـــا فإن أهم شروح هذه العقيدة هي: "شرح أبي عبد الله بن الكتاني" (ت:576هـ/1199م)، و"شـــرح الرعيني" (ت:598هــــ/1201م)، و"شرح الأستاذ الخفاف" (ق:7هـ/13م)، و"شرح ابن بزيزة التونسي" (ت:673هـ/1275م)،و"شرح اليفرني" (ت:734هـ/1334م)، و"شرح العقباني" (ت:811هـ/1408م)، و"شرح المجهول"، وغيرها من الشروح.

ومـــن المعاصـــرين للسلالجي من أشاعرة الفترة أبو علي حسن بن علي المسيلي (ت: 580هـ/ 1185م)، الذي كان متمكنا من العقيدة الأشعرية وألف فيها كتاب: "التذكرة في علم أصول الدين"، وكان يلقب بأبي حامد الصغير[2].

وإذا كانت مدرسة السلالجي قـــد أنتجت جملة من علماء المذهـــب بفاس والمغرب عموما، فيبقـــى أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي عرف بابن الكتاني (ت:576هـ/1180م)[3] أكبر أئمتها، وهو الذي خلفه على كرسي العقيدة بالقرويين حيث انتصب للتدريس، وكان الطلبة يفدون عليه من أنحاء المغرب والأندلس[4]. يقول ابن العربي الحاتمي: « رأيت عبد الله الكتاني بمدينة فاس إماما مـــن أئمـــة المسلمين في أصول الدين والفقه »[5]. وأشهر من تخرج عنه ابن الكتاني من التلاميذ: أبو الحجـــاج يوســـف بـــن عبد الصمد (ت:614هـ/1217م)، وأبو الحسن بن العطار، وأبو عبد الله النامسي[6]، وأبو الحسن التادلي الأندلسي (ت:648هـ/1251م)[7]، وغيرهم.

---

[1] – الـــذي اعتبرها اختصارا لكتاب "الإرشاد" للجويني، راجع: ملء العيبة بما جمع من طول الغيبة، تح: محمد الحبيب بلخوجة، ط: الدار التونسية للنشر، تونس: 1982: 2 / 226.

[2] – الغبريني – عنوان الدراية – تح: عادل نويهض، ط: 1 منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت: 1969، ص: 33.

[3] – انظـــر ترجمته عند: التادلي – التشوف، ص: 335، وابن القاضي– الجذوة: 1 / 220، وابن الزبير – التكملة: 164، والكتاني – السلوة: 3 / 172.

[4] – ابن الأبار– التكملة: 2 / 681، وابن رشيد – ملء العيبة: 2 / 226.

[5] – الفتوحات المكية، تح: عثمان يحيى،ط: دار النهضة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: 1977: 5 / 74.

[6] – ابن الأبار – التكملة: 2 / 925.

[7] – م، س: 2 / 681.

وقد ألف الفندلاوي أجزاء في أصول الفقه وبعض كتب التراجم، لكن أهم أعماله وأكثرها تأثيرا في المغاربة هو شرحه "للبرهانية السلالجية"، هذا الشرح الذي استفاد منه كل من درس الفكر العقدي لأبي عمرو السلالجي فيما بعد. ورغم ضياع هذا الشرح إلا أن النصوص الموجودة بين أيدينا منه الآن تثبت بأن ابن الكتاني كان ذا اطلاع واسع على العلوم العقلية المنطقية وعلى الفكر الأشعري الذي كان مجال اشتغاله الأول[1].

ومن طبقة ابن الكتاني برز أشعري آخر هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد الرعيني السرقسطي يلقب بالركن ويكنى أبا عبد الله (ت:598هـ/1201م)، قال ابن الأبار: «كان فقيها متحققا بعلم الكلام، متقدما فيه يناظر في "الإرشاد " لأبي المعالي وغيره..وولي قضاء معدن عوام بمقربة من مدينة فاس »[2]، وهو أحد شراح "البرهانية" — كما ذكرناه سابقا-، وتدل نصوص شرحه على رسوخ قدمه وتجديده في علم الكلام الأشعري بالمغرب.

ومن تلاميذ مدرسة السلالجي وقرناء ابن الكتاني علم آخر يعد من كبار أعلام الأشاعرة، وهو علي بن عتيق بن مؤمن الأنصاري الخزرجي (ت:598هـ أو 600هـ/1202م أو 1203م)[3]، من أهل قرطبة ونزل بآخرة بمدينة فاس. فقد تعمق في العلم على يد أبي عمرو السلالجي، حيث ذكر أنه قرأ عليه علم التوحيد، وعلم الحديث، والفقه، وشيئا من علم التفسير، إلا أنه اختص به في علم الكلام وخصوصا من كتاب "الإرشاد"[4].

وبفضل مواهبه وعقله الراجح صارت له المكانة السامية في الفكر الأشعري وفي الحديث، فشهد له كل الذين قابلوه والذين ترجموا له بأنه كان مشاركا في علم التوحيد متضلعا منه. ومما يثبت تقدم ابن مؤمن في العلم الذي نحن بصدده أنه قام بنظم أراجيز فيه. قال المراكشي: « ونظم في العقائد قصيدة جامعة كبيرة وقفت عليها بخطه»[5].

---

[1] – عن نصوص هذا الشرح انظر رسالتنا عن السلالجي ومدرسته، ص: 120.

[2] - التكملة: 1 / 275.

[3] – عن سيرته انظر: ابن الأبار — التكملة: 2 / 674، والمراكشي— الذيل والتكملة، س: 5: 1 / 256 وما بعدها، وابن الزبير— صلة الصلة، ص: 115، وابن القاضي— الجذوة: 2 / 482، ومخلوف— شجرة النور: 1 / 256، والتازي — جامع القرويين: 1 / 179.

[4] – انظر ابن مؤمن— بغية الراغب ومنية الطالب، نقلا عن المديوني — شرح العقيدة البرهانية، ص: 60، واليفرني — المباحث العقلية، ص: 1.

[5] – الذيل والتكملة، س: 5: 1 / 161.

ومن أشعريي هذا الطور كذلك عبد الجليل بن موسى الأنصاري الأوسي القصري (ت:608هـ/ 1211م)، وكـان فقيهـا صوفيا متكلما[1]. قال التنبكتي: « كان متقدما في علم الكلام، مشاركا في العـربية وغيرها متصونا، له تآليف منها: "كتاب تفسير القرآن"، و"شعب الإيمان"، و"كتاب المسائل والأجوبة"»[2].

ومـنهم أيضـا اللغوي الكبير أبو الحسن علي بن خروف الحضرمي الإشبيلـي (ت: 609هـ/ 1212 م)، الذي أقرأ بالأندلس والمغرب، قال ابن عبد الملك: « وأخذ علم الكلام وأصول الفقه عن العارف أبي عبد الله الرعيني وأبي الوليد بن رشد الأصغر»[3]. ومن أهم إنجازاته العلمية ردوده على أبي المعـالي الجويـني في كتابه "الإرشاد"، وعلى أبي محمد بن حزم في بعض مقالاته، وعلى أبي الوليد بن رشد، وأبي القاسم السهيلي، ويحيى بن مضاء وعلى غيرهم من أهل عصره.

ومـن الأشـاعرة الكبار لهذه المرحلة أبو الحسن علي الأنصاري الخزرجي الفاسي الإشبيلي ابن الحصار(ت:610هـ/1213م)[4]، أصله من إشبيلية، ولكنه ولد في فاس ودرس بها وسكن سبتة، وكان محدثا راوية فقيها عارفا بالأصول والكلام متحققا به. وله مؤلفات مفيدة من أهمها: "مقالة في الإيمان والإسلام" وعقيدة سماها "تلقين الوليد وخاتمة السعيد" وشرحها في أربعة مجلدات متوسطة...[5].

وفي السـنة المواليـة لوفاة ابن الحصار سيتوفى عالم آخر برز في حقل الكلام الأشعري، ذلك هو إبراهـيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المكنى أبا إسحاق والمعروف بابن المرأة. سكن مالقة دهرا من الزمن، ثم تحول إلى مرسية باستدعاء من المحدث أبي الفضل المرسي والقاضي أبي بكر بن محرز. وكان متميزا في جميع العلوم، ولكنه غلب عليه علم الكلام فرأس فيه واشتهر به، وكان بحرا للعامة التي كـانت حـزبه، ولم يـزل بمرسية يناظر عليه ويختلف إليه إلى أن مات. ومن تآليفه الشهيرة "شرحه للإرشاد" و"شرح أسماء الله الحسنى"[6].

---

[1] – ابن الزبير– صلة الصلة، ق: 4، ص: 31.

[2] – نيل الابتهاج، ص: 278.

[3] – الذيل والتكملة، س: 5: 1 / 319.

[4] – تـرجم لـه ابن القاضي– الجذوة: 2 / 470، وابن عبد الملك– الذيل والتكملة، س: 8: 1 / 209، وابن الأبار– التكملة: 2 / 686، وابن فرحون – الديباج، ص: 172، والتنبكتي – نيل الابتهاج، ص: 316.

[5] – راجع المصادر السابقة، ن، ص.

[6] – انظـر: ابن الأبار– التكملة: 1 / 134، وابن الخطيب – الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، ط: الشركة المصرية للطباعة والنشر، البيضاء: 1964، ص: 325، وابن فرحون– الديباج، ص: 90.

وبعد وفاة ابن دهاق سيتوفى أشعري آخر نحسبه من كبار أشعريي الفترة وإن لم يقع الاهتمام به عند الباحثين، ذلك هو محمد بن عبد الله بن حسن الزرهوني الفاسي الأصل أبو عبد الله بن الزق (كان حيـا سنة: 612هـ/1215م)[1]، الذي درس على جماعة من العلماء الأندلسيين أشهرهم أبو الوليد بن رشـد الصغير، وأبو عبد الله الأصولي وأبو محمد بن الخراط، وعاد إلى فاس، ثم انتقل منها إلى جبل زرهون فاستوطنه، وروى عنه به غير واحد. وقد أبدع في الكلام والفلسفة، وله تآليف أهمها "شرحه للعقيدة البرهانية" للسلالجي، وهو شرح مفيد – كما تدل على ذلك النصوص التي عثرنا عليها منه–[2].

ومـن معاصري ابن حمير –المبحوث الأول في هذا العمل– وشريكه في سنة الوفاة أشعري آخر سـطع نجمه ببلاد المغرب والأندلس هو أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن نموي (ت:614هـ/ 1217م)[3]، الـذي أخـذ علم الكلام والأصول عن أبي عمرو السلالجي وصحبه إلى أن مات. وبعد اشـتداد عوده وبروز مكانته في علم الكلام تولى التدريس في فاس فقعد لذلك بمسجد زقاق الرواح مكـان سكناه وسلفه. ولما كانت دروسه تنبئ عن ثقافة واسعة وعلم جم فقد ذاع صيته وطار ذكره إلى مـراكش وإشبيلية، فاستدعي للتدريس بكل المراكز العلمية الكبيرة، فانتقل إلى عاصمة الموحدين مراكش كما انتقل إلى الأندلس حيث أقرأ بإشبيلية وأخذ عنه بها كبار علمائها.

ونخـتم هـذا الجرد الانتقائي لعلماء الأشاعرة بالمغرب في فترة الاكتساح والتوسع بالإشارة إلى معاصـر لابن حمير السبتي هو الأشعري الضليع والعالم المتمكن من جملة العلوم، أبو عبد الله محمد بن عيسى بن المناصف، المهدوي (ت:620هـ/1223م)، الذي نشأ بتونس وأصله من قرطبة وانتقل والده إلى إفريقية في الفتنة عند انقراض دولة المرابطين.

كـان ابـن المناصف عالما متفننا ومتقنا ونظارا، صاحب استنباط وتدقيق، واقف على الاشتقاق والاخـتلاف، معللا مرجحا مع الحظ الوافر من علم اللغة والأدب والتصرف الحسن في قرض الشعر. وقد ساعده ذلك على وضع أراجيز: "المذهبة في الحلى والشيات"، حملت عنه وسمعت منه، وسمع ابن

---

[1] – انظر: م، س: 8: 1 / 307.

[2] – انظر رسالتنا عن السلالجي، ص: 132.

[3] – انظـر ترجمته عند: ابن الأبار – التكملة: 2 / 740، وابن أبي زرع – الذخيرة السنية، ص: 51، وابن القاضي– الجذوة: 2 / 550، والتنبكتي – نيل الابتهاج، ص: 626، والمنوني – العلوم والآداب والفنون، ص: 118، والتازي – جامع القرويين: 1 / 182.

الأبار كثيرا منها، ومنها "الدرة السنية في المعالم السنية" التي تشهد بتقدم الرجل في علم الكلام واطلاعه على دقائقه وتفاصيله، كما تصور انتماءه الأشعري ودفاعه عن عقيدته.

هـــؤلاء – إذن – هم أهم أعلام مرحلة الاكتساح والتوسع، وهي مرحلة تقتضي أن نبدي عدة ملاحظات بشأنها من أهمها:

أن الفكر الأشعري فيها استفاد من الرعاية الرسمية التي ضمنتها لــه الدولة الموحدية، حيث صار عـــلماؤه يشتغلون بحرية كبيرة، بل لقد كانوا يلقون من التشجيع والدعم الرسمي ما جعلهم يضاعفون مجهوداتهم وأنشطتهم في سبيل تعميم الاعتقاد بالفكر الأشعري. ويتجلى ذلك الدعم بصفة خاصة في سياســـة التعيينات العلمية والقضائية لخلفاء الموحدين، الذين كانوا لا يعينون في مناصب القضاء وفي المراكز العلمية العليا إلا من له اختيارات عقدية موافقة لخط إيديولوجيتهم الأشعري.

ومـــا يلاحظ عن خصوصيات هذه الفترة أيضا أن التأثير الجويني كان لا يزال يفعل فعله ويمارس عملـــه في اختيارات علماء الأشاعرة المنتسبين إلى هذا العصر. فقد تبين أن جل الدراسات والمؤلفات، وأن عمـــليات الـــتكوين ودروس الحلقات، كلها كانت تركز على "الإرشاد"، وعلى مؤلفات إمام الحـــرمين. ولذلك يحق أن نحكم بأنه من الناحية المضمونية والمنهجية، فإن الفكر الأشعري المغربي منذ ارتـــباطه بالفكر الجويني عرف نوعا من الاستقرار والاطمئنان إلى اختيارات هذا الرمز الكبير، لاسيما وأن خلفه على رأس المدرسة الأشعرية المشرقية أبا حامد الغزالي لم يقدم جديدا يذكر في تطوير الدرس الأشعري العام، سوى ما تعلق بتطبيقه لنظرية الجويني في جعل المنطق أرضية للعلوم بما فيها علم الكلام، ولذلك لم يقع تطور لا في القضايا المعالجة ولا في المنهج المتبع في عرض قضايا الفكر الأشعري بالمغرب إلا في فـــترات لاحقة عندما ارتبطت الفلسفة بالكلام على عهد الإمام الفخر الرازي (ت: 606هـ/ 1209م) ومن جاء بعده.

كما نسجل أن التأليف في فترة الاكتساح كان متنوعا، والأهم من هذا أن الكثير من مؤلفات هذا العصـــر اتسمت بالكثير من التجديد، وطبعت بطابع الخصوصيات التي استلزمتها المتطلبات المحلية في التعامل مع مباحث علم الكلام الأشعري، فاعتنت بالتبسيط والشرح والتوضيح.

والمـــثير في فـــترة الاكتساح أن الإشعاع المركزي للفكر الكلامي تركز في بلاد المغرب الأقصى، حيـــث ســـتبرز مدن أساسية استلمت مشعل الترويج للفكر الأشعري من مدن إفريقية وأندلسية مثل مـــدن: فاس، ومراكش، وسبتة، وغيرها من مدن ومراكز المغرب الأقصى التي ستشهد ميلاد مدارس قوية دافعت عن الفكر واحتضنته وقوت البحث فيه والإنتاج وفق منهجه وأسلوبه.

وإجمـــالا فإن الفكر الأشعري المغربي قطع عدة مراحل في عملية الانتقال إلى المغرب، كما أنه مر بثلاث مراحل أساسية، وبأطوار متعددة قبل أن يترسخ ويكتسح المجال العقدي بالمغرب. أجل إن الفكر الأشـــعري المغربي مر في انتقاله إلى بلاد المغرب بمراحل متعددة قبل أن يصل إلى مستوى النضج الذي سيسهم ابن خمير السبتي في إكماله، فقد تهيأت لهذا المذهب أسباب الظهور أولا في إفريقية نظرا لتفتح المدرســـة الســـنية السلفية هناك على الاتجاهات غير السنية ونظرا لاضطرارها إلى الدخول في مواجهة الفرق الكلامية المخالفة، مما جعلها تتعزز بأدوات عقلية ومنهجية قابلت بها أساليب وحجج الخصوم، وقـــد اغتنم بعض الوافدين من المشرق من طلبة المغرب هذه الأجواء التونسية التي تسامحت في إباحة النقاشـــات العقديـــة فقاموا بالترويج لبعض المبادئ الكلامية الأشعرية، كما قام بعض هؤلاء الطلبة بالدعاية لأعلام المدرسة الأشعرية الكبار لا سيما لأبي الحسن مؤسس المذهب.

ولكـــن الأشعرية لن تصير مذهبا معتقدا على المستوى الفردي إلا بعد ذلك ولا سيما في المرحلة الباقلانية والمرحلة الجوينية، حيث سيظهر من أتباعها في المغرب من أسهم في التعريف بمبادئها بصورة أوضـــح كمـــا سيقوم بعض أتباعها بالتأليف في طريقة "أهل الحق" لتحقيق نوع من التعميم لمبادئها وأسلوبها في معالجة القضايا. إلا أن أهم مرحلة في طور ما قبل ترسيم الأشعرية هي تلك التي سينتقل فيه مركز الإشعاع الأشعري إلى الأندلس، حيث سيظهر مفكرون كبار في هذا البلد من عيار الباجي وابن العربي وأبي الحجاج الضرير، الذين ستعرف معهم الأشعرية تحولا نوعيا وسيصير الاعتراف العلمي بها مسألة ثابتة.

ورغم أن الدولة المرابطية لم تكن متحمسة لنشر هذا المذهب، حيث حال علماؤها دون نماء هذا الفكر ببلدهم، إلا أن التأليف في عقيدة الأشاعرة كان قد شق طريقه في بلاد المغرب بطمأنينة وثبات، وصـــار المغاربة يزون زملاءهم في المشرق في الإنتاج العقدي وفي الإبداع الأشعري، وهذا ما تؤكده كتب "ابن العربي" ومؤلفات "الباجي" على الخصوص.

وإذا كان انتشار أي مذهب وتحقيق ضمانات استمراره أمرا مرهونا بوجود نظام يرعاه ويتبناه، فإن الأشعرية المغربية وجدت في ابن تومرت وفي دولته الموحدية خير راع ومساند لها، فعلى أكتاف خلفاء هذه الدولة وبتحفيز العلماء الرسميين وغير الرسميين على نشر المذهب الأشعري وإلزام لحفظ نصوصه، تم ترسيم المذهب الأشعري بهذه البلاد وصارت الأشعرية العقيدة الرسمية للدولة منذ ذلك الزمن وإلى حدود اليوم.

وبمجرد ترسيمه سيعرف المذهب انتشارا سريعا وستتأسس له المدارس التي كان منها النظامي وغير النظامي، وستعرف المؤلفات الأشعرية المغربية حركة متجددة وستتناسل البحوث العقدية وسيتلو بعضها بعضا، ومع ذلك فقد بقيت المدرسة السلالجية المغربية أهم مدرسة خرجت دفعات الطلبة والمتخصصين في الدرس الأشعري، هذه المدرسة التي امتد إشعاعها إلى مناطق المغرب والأندلس، والتي صار خريجوها ينقلون مبادئ شيخها أبي عمرو إلى القاصي والداني. كما أن مؤلف السلالجي "البرهانية" سيغدو مركز الدراسة والتأليف والشرح منذ فترة الترسيم وإلى فترات طويلة فيما بعد.

وعلى كل حال ففي هذه الأجواء وفي هذه المرحلة التطورية للفكر الأشعري سيبرز نجم المفكر السبتي أبي الحسن بن خمير – صاحب الكتاب موضوع التحقيق "مقدمات المراشد"–، هذا المفكر الذي سيقدم خدمات جليلة للفكر الأشعري المغربي. فمن هو ابن خمير هذا ؟ وماذا يمكن القول عن دراسته وتكوينه؟ وما هي خصوصيات ثقافته ؟ وماذا يمكن التقديم بخصوص كتابه " مقدمات المراشد"؟ هذه بعض الأسئلة التي سنعمل على الإجابة عنها ومناقشتها خلال المباحث التقديمية اللاحقة.